تاريخ يعيد نفسه فى شرق الأردن

يتفق الجغرافيون والمؤرخون فيما بينهم على كثير من الأشياء ، ولكنهم يختلفون على أمر واحد خطير ، يتصل بتقدير ما بين الإنسان والبيئة من علاقة ، وبتفسير حوادث التاريخ واتجاهاته الأساسية . فهل البيئة الجغرافية بمظاهرها المختلفة هى المسئولة الأولى عن توجيه نشاط الإنسان ، وتعريف حوادث التاريخ ، وتحديد اتجاهاته ؟ أم إن الإنسان ، فرداً أو جماعة ، هو سيد الطبيعة ، والمسيطر الأول على الحوادث والتاريخ ؟ وأصحاب الجغرافيا مهما اختلفت نزعاتهم ميالون بحكم دراساتهم إلى تغليب أثر البيئة . بل يذهب بعضهم إلى إقرار ما يسمونه « بالحتم الجغرافى » . فالجماعات البشرية فى نظرهم مسيرة بحكم ما تعيش فيه من ظروف طبيعية ؛ فالإنسان مهما كدح ومهما اجتهد فإن الطبيعة هى الغالبة . ولئن كان هذا الإنسان قد استطاع أن يحوِّر بعض مظاهر الطبيعة بين حين وحين ، فإن ذلك التحوير لم يخرج بها عن قواعدها الثابتة وقوانينها الحاكمة . وغاية ما هنالك أن الإنسان استطاع بذكائه أن يستغل موارد الطبيعة الصالحة ، فبدا كأنه المتحكم فيها ؛ مع أن الأمر قد يكون غير ذلك ؛ فالطبيعة ذاتها كثيراً ما توحى إلى الإنسان طريق الاستغلال ، فتوجهه من حيث لا يشعر .

وأما أصحاب التاريخ فيندر بينهم من يبدأ بالبيئة ، أو يسلم لهم بأكثر من تأثير ثانوى . وكثرتهم تفضل ، بحكم الدراسة أيضاً ، أن تبدأ بالإنسان على أنه كائن حر التصرف ، فى حدود ما تقضى به القوانين والنظم الوضعية ، أى التى تواضع عليها الناس . بل إن حوادث التاريخ فى نظر كثير من هؤلاء المؤرخين إنما ترتبط ارتباطاً مباشراً بأعمال الناس ، التى توجهها فى الغالب إرادة نفر قليل هم قادة المجتمع وكتّاب التاريخ .

ولكن الحق أن هذا الاختلاف بين الجغرافيين والمؤرخين لا يشملهم جميعاً ؛ وإنما هناك فئة من أولئك وهؤلاء ترى فى هذا الاختلاف لوناً من ألوان التعصب

الفكرى لامسوغ له ، ولانفع فيه ؛ بل هو يناقض ماتقضى به روح العلم الصحيح من اتساع الأفق ورحابة الفكر ، ومن الاستعداد دواماً للأخذ والعطاء وتقليب الفكر بين الإقناع والاقتناع . وليس أضر على العلم والمتعلمين ، ولا أشر على البحث والباحثين ، من ضيق الفكر والتعصب لرأى معين أو مجموعة معينة من الآراء . ومن يدرينا ! فقد تكون التفرقة بين الإنسان والبيئة فى حد ذاتها أمراً لامسوغ له ؛ بل قد يكون الفصل بينهما وهماً لاوجود له فى الواقع . فالإنسان عنصر أساسى من عناصر البيئة بمعناها الأشمل ، وبدونه لا تكتمل صورتها العامة ، ولايكون للحياة على سطح الأرض طابعها المميز من وجهة نظر الجغرافى والمؤرخ على السواء . وليس من الممكن عقلا أن نتصور تاريخاً يجرى فى الطبيعة لو أنها عقمت من الإنسان ، ولا أن نتخيل أن الانسان يستطيع أن يخلق تاريخاً لو أنه عاش فى الفضاء . وإذن فقد يكون عبثاً أن نفصل بين الاثنين ، أوحتى أن نحاول المفاضلة بينهما ؛ فقد تكون الطبيعة هى العنصر الغالب فى مكان ما ، وفى زمان معين ، فيجرى النشاط البشرى فى حدود معينة مرسومة ؛ أو قد يكون الانسان هو العامل الأول فيستغل الطبيعة حيناً ، ويستجيب لها بمحض إرادته حيناً آخر . ولكن الشئ المهم أن النشاط البشرى فى جملته إنما هو نتيجة لما يتم بين البيئة والإنسان من تفاعل ، لا يهم فيه كثيراً أن تكون الطبيعة موجبة والإنسان سالباً ، أو أن يكون الأمر عكس ذلك .

وإذا نحن نظرنا إلى تاريخ البشر هذه النظرة ، فقد يعيننا ذلك على تلمس ماقد يكون هناك من حقيقة فى الحجة القائلة بأن التاريخ يعيد نفسه . ذلك أن التفاعل بين البيئة والإنسان مهما اختلفت ظروفه التفصيلية فهو لايخلو من بعض العناصر الأساسية الدائمة . فطبيعة البيئة الجغرافية من جهة ، وطبيعة النفس البشرية من جهة أخرى ، لا تتطور إلا فى بطء شديد ، ولا تتحور إلا بقدر معلوم ؛ وإذن فلابد من أن تتشابه نتائج التفاعلات بينهما من عصر إلى آخر ، فى المكان الواحد والمجتمع الواحد على الأقل .

وبقدر ما يطول التاريخ البشرى فى إقليم ما ، تتعدد الأدلة والشواهد فيه على تشابه الحوادث وتكرارها على مر العصور . وظاهر أن الشرق الأدنى أحد تلك الأقاليم التى يطول فيها التاريخ . وقد يكفينا أن نبحث منه منطقة واحدة صغيرة لنتبين تشابه بعض أوجه التاريخ وصوره من عصر إلى عصر . وسنختار إحدى

مناطقه الداخلية ، والتى كانت بمثابة حلقة اتصال بين أطرافه فى الشرق والغرب وفى الشمال والجنوب ... تلك هى منطقة شرق الأُرْدُنّ ، التى كاز تاريخها إلى حد بعيد صورة واضحة من تاريخ الاتصال بين مختلف أجزاء ذلك الشرق ، وارتباطها بعضها ببعض ارتباطاً شمل نواحى الحياة التجارية والثقافية والسياسية جميعاً .

ويقع شرق الأردن فى قلب القسم الشمالى من الشرق الأدنى ؛ ويحتل الحافة الشرقية لمنخفض البحر الميت ، وهى مرتفعات مؤاب الوسطى ، وما يليها جنوباً فى بلاد إدوم القديمة ووادى العرابة ، وشمالا فى شعاب اليرموك وروافده التى تنتهى إلى سهل الأردن . ويبلغ بعض مرتفعات مؤاب أكثر من ١٥٠٠ متر فوق سطح البحر ؛ وهى تتلقى الرياح الغربية الممطرة فى الشتاء ، فتنصرف مياهها فى أودية عميقة شديدة الانحدار نحو البحر الميت من جهة ، وفى أودية أخرى قليلة الانحدار ، تتجه نحو بادية الشام وأطراف صحراء النفود من جهة أخرى . وهذه المرتفعات تكسو جوانبها الخضرة والأعشاب فى أشهر الشتاء والربيع ؛ وتجود فى أوديتها وأحواضها التربة ، ويطيب الغرس والزرع ولو فى بقاع محدودة بالنسبة للمساحة الكلية . ولذلك كانت هذه المرتفعات قاعدة لحياة تمثل فيها جانب البداوة والتنقل ، وجانب التحضر والاستقرار . وقد حماها البحر الميت ومنخفضه ؛ فمنع عنها ما وقعت فيه أرض فلسطين من اضطرابات شغلت التاريخ إلا أقله ، كما حمتها البادية والفيافى من الشرق ، فتمت لها بذلك الوقاية ، وضمن لها الهدوء النسبى من الغرب والشرق . ومع ذلك فقد اتصلت هذه المرتفعات ببقية الشرق الأدنى اتصالا منتظما عن طريق الجنوب والشمال ؛ وأصابها من ذلك الاتصال خير كثير وشر غير قليل . بل إن موقعها الجغرافى جعل منها عقدة التقت عندها روابط الشرق ، وتعاقدت أواصره ؛ واحتكت فيها البادية بالحضر احتكاكاً لم يخل من عنف فى بعض الأحايين ، ولكنه مع ذلك أنتج أطيب الثمرات.

وإلى الجنوب من مرتفعات شرق الأردن ووهاده تأتى الطرق من نواح متفرقة ؛ فيأتى طريق من الخليج الفارسى وشمال نجد وتيماء والجوف ودومة الجندل ؛ ويأتى طريق آخر من اليمن والحجاز وعين صالح وجبال مدين فى شمال الحجاز (وهو طريق رحلة الشتاء والصيف فى الجاهلية وطريق الحج بعد ذلك) ؛ ثم طريق ثالث من البحر الأحمر ورأس خليج العقبة حيث قام ميناء أيلة القديم وحيث تقوم العقبة الآن ؛ ويأتى طريق رابع من مصر وشبه جزيرة سينا أو من

ميناء غزة إلى أطراف فلسطين الجنوبية ثم وادى عرابة وأرض بطرا والنبط القدماء . أما من شمال مرتفعات شرق الأردن فيأتى طريق من العراق الأوسط وبادية الشام إلى اليرموك وشمال مؤاب ؛ وطريق آخر من العراق الأعلى وتدمر إلى دمشق وعمّان ؛ وطريق ثالث من سوريا الشمالية وحلب وحمص إلى دمشق وأرض حوران ثم الجنوب ؛ وطريق رابع من شمال فلسطين عابر الأردن حتى يلتقى بطريق الشام ويمتد إما جنوباً وإما شرقاً وإما صوب الشمال . وهذه الطرق التى أسلفنا جميعاً يلاقى بعضها بعضاً ، أو تتقاطع على الأقل ، فى أراضى شرق الأردن . وقد سلكها التجار وحداة الإبل منذ أقدم العصور ؛ وجاء هؤلاء التجار من جميع أطراف الشرق الأدنى يحملون السلع ويجتمعون فى الأسواق ، فيتبادلون الفكر وألوان الثقافة ، وبذلك تعارف الشرق وتآلف فى كثير من الأحايين . كذلك سلكت الغزوات والحملات نفس هذه الطرق ، التى قامت عليها الحاميات ، وأقيمت فوق روابيها القلاع ، تشرف على الطرق وتحمى المسافرين وتنظم اتصال البادية بالحضر ، واحتكاك الرعاة والبدو بوسطاء التجارة والقائمين على نقط التبادل والأسواق .

وهكذا كان شرق الأردن موقع اتصال واحتكاك منذ القدم ، واستمر كذلك على مر العصور . نفذت إليه السلطة المصرية من وقت إلى آخر ؛ وامتد إليه النفوذ العراقى فى كثير من الأحيان ؛ وحاول أهل الشام وأهل فلسطين الشمالية وما وراءها أن يفرضوا سلطانهم عليه بين حين وحين ؛ بل إن أهل جنوب بلاد العرب والحجاز توسعوا فى أطرافه الجنوبية واستقر بهم المقام فى أكثر من مكان هناك . ولم يكن الأمر مقصوراً على هذه العناصر جميعاً ؛ وإنما امتدت الأيدى إلى شرق الأردن من أقاصى الأرض ؛ لأنه كان عقدة الشرق الأدنى ورباطه من الناحية العسكرية ؛ فنفذت إليه جحافل الرومان وأقامت حامياتها وعبّدت طرقها فى ربوعه ؛ ثم اهتمت له بيزنطة فتدخلت فى شؤونه العسكرية والسياسية إلى أبعد الحدود . ثم جاء عهد صارت فيه شؤون هذا الاقليم إلى أهله وسادته من أمويين وغيرهم . حتى إذا جاء العهد الصليبى نفذ الصليبيون من جديد إلى بعض قلاعه فأقاموا بها ، وكانت حامياتهم هناك شوكة فى جنب العرب والمسلمين . فاذا ما جاء الأتراك العثمانيون اهتموا بأمره كطريق للحج ومنفذ إلى الأراضى المقدسة . وأخيراً جاءت الإمبراطورية البريطانية ،

فاتخذ رسلها ومبعوثوها إبان الحرب الماضية قيادتهم فى فيافى هـذا الإقليم الداخلى . وانتهى الأمر فى أعقاب تلك الحرب بأن حصلت بريطانيا على حق الانتداب على هذه المنطقة العسكريه الهامة ، التى غدت قاعدة حربية من الدرجة الأولى ؛ وقد برزت أهميتها بل تضاعفت إبان هذه الحرب المنتهية . وأغلب الظن أن بريطانيا ستستمسك ببعض الإشراف العسكرى على أراضى هذا القطر الشقيق حتى بعـد أن يحصل على استقلاله المرتقب ؛ فيقوم احتفاظها بقواعدها البرية والجوية هناك وإشرافها على ميناء العقبة على أساس الاتفاق والمعـاهدة بينها وبين شرق الأردن ، بدلا من أن يستند إلى نظام الانتداب أو الوصاية أو غيرهما من مظاهر الارتباط والتفويض الدولى .

ولن نستطيع هنا أن نسوق أكثر من أمثلة محدودة تبرز لنا قيمة هذا القطر من أقطار الشرق العربى ، وتبين لنا كيف أن التاريخ قد استعاد فى عهده الحديث بعض صوره واتجاهاته الأساسية فى بعض أعصره القديمة . ولم يكن ذلك إلا لأن قيمة هذا القطر كواسطة اتصال ونقطة سـيطرة على طرق الشرق الأدنى وعلى منافذ أقطاره المختلفة كانت قيمة دائمة لا طارئة ، وكانت عاملا أساسـياً باقياً ، أفاد منه واستجاب له سكان المنطقة نفسها ، كما أفاد منه واستغله كثير من الطامعين فى السيطرة العالمية ، وممن امتدت أيديهم إلى الشرق الأدنى فى تاريخه القديم وتاريخه الحديث على حد سواء .

وقد يكفينا فى هذا الصدد أن نعنى عناية خاصة بالموازنة بين عهـد الإمبراطورية الرومانية وعهد الإمبراطورية البريطانية . فكلتا الإمبراطوريتين كانت لها يد أى يد فى تصريف شؤون الشرق الأدنى وتوجيه تاريخه . وكلتـا الإمبراطوريتين كانت لها مصالح مادية فيما وراء ذلك الإقليم ذات اليمين وذات الشمال . وكلتاهما لم تقنع بأن تكل أمر الوساطة التجارية بين الشرق والغرب إلى العرب وغيرهم من سكان هذا الشرق ، وإنما فرضت نفسها وسلطانها عليهم فرضاً ، وتدخلت فى شؤونهم بما يضمن لتجارتها الشرقية مع الهنـد وغيرها مروراً آمناً ورواجاً مضموناً . وإذا كان التاريخ قد اسـتعاد بعض فصوله فى هـذا الإقليم بين هذين العهدين المتباعدين فان ذلك لم يكن لمجرد المصادفة أو محض الاتفاق ، وإنمـا هو قد ترتب على اجتماع عدد من الظروف والعوامل الطبيعية والبشرية الواحدة أو المتماثلة فى احالتين .

ولكننا قبل أن نصل إلى الإمبراطورية الرومانية ينبغى أن نشير إلى من سبق الرومان فى شرق الأردن ، أو فى جانب كبير منه على الأقل . أولئك الأنباط أو النبط الذين ازدهرت حضارتهم خلال ستة قرون ، كان أعظمها ازدهارا ذلك القرن الذى يتوسطه مولد المسيح عليه السلام . وكانت قاعدة ملكهم فى سلاع أو بطرا التى تقع على الحافة الشرقية لوادى العرابة ، والتى لا تزال آثارها باقية منحوتة فى الصخور الرملية الوردية اللون ؛ وهى التى نزلت فى أصحابها الآية الكريمة «وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ» . وكانت بطرا هذه عند ملتقى عدد من طرق التجارة التى أشرنا إليها من قبل ؛ فكانت سوقاً هامة أفاد أصحابها من التجارة والوساطة التجارية فى الشرق ، وأصابهم من اتصالهم بالعالم الخارجى خير كثير ، تمثل فى تلك الحياة الثقافية والفنية الراقية التى امتازت بها مدينتهم العتيدة ، حيث انعكست فى معابدها وهيا كلها المنحوتة والمشيدة مؤثرات الفن الآشورى والفن المصرى البطلسى والفن الإغريقى ، بل حيث تأثرت الحياة العامة بضروب مختلفة من المدنية المادية والتنظيم الاجتماعى ، وبألوان متباينة من الثقافة العقلية والفكر الدينى ، بعضها سامى خالص توارثه النبط عن أسلافهم من الساميين القدماء فى بادية بلاد العرب نفسها ، وبعضها سامى غير خالص أخذوه عن الآشوريين فى الشمال وعن السبئيين والحميريين فى أقصى الجنوب وفى مستعمرة عين صالح فى شمال الحجاز ، ثم بعضها مصرى قديم أو بطلسى مختلط ، وأخيراً بعضها إغريقى أو إغريقى رومانى أتى عن طريق شرق البحر الأبيض المتوسط . ومع ذلك كله فإن اختلاط المدنية والفكر والثقافة لا يجوز أن ينتقص شيئاً من قيمة حضارة النبط ؛ لأن الواقع أن شرق الأردن كان بحكم موقعه النقطة الوحيدة التى يمكن أن تلتقى فيها تيارات الثقافة المختلفة . وقد أثمر هذا الاختلاط ثمراته الطيبة ؛ وكانت ثقافة النبط وكتابتهم على وجه الخصوص أساساً من أسس الثقافة العربية والكتابة العربية التى ظهرت فيما بعد . والثابت الآن أن الخط العربى المعروف قد تطور عن الخط النبطى القديم .

وعند ما ظهرت أطماع الإمبراطورية الرومانية فى الشرق القريب ، واقترنت تلك الأطماع بمصالحها التجارية فى الهند ، ومصالحها الأخرى فى بلاد الشرق الوسيط ، لم يقتنع أباطرة روما بأن تكون لهم قدم راسخة فى مصر وشمال البحر

الأحمر ، وإنما أدركوا ان حماية المصالح حماية كاملة تقتضى أن تمتد يدهم إلى شرق البحر المتوسط وشمال بلاد العرب ، ليضمنوا السيطرة على طرق القوافل ويؤمنوها للمسافرين من جهة ، وليمدوا أيديهم من هناك إلى رأس الخليج الفارسى ويشرفوا على بعض موانيه من جهة أخرى — والخليج الفارسى كان إذ ذاك ، كما هو اليوم ، أحد الطرق المؤدية إلى الهند ، بلاد الثروة والغنى ، ومورد كثير من النفائس والطيبات ! — وهكذا استقر رأى تراجان إمبراطور روما على أن يضع يده على مملكة النبط ؛ فغزا بلادهم فى عام ١٠٦ الميلادى ، واستولى على عاصمتهم ، ثم على مينائهم فى أيلة ، ومد يده آخر الأمر إلى طرف الخليج الفارسى .

وتحول شرق الأردن إلى ولاية رومانية ؛ وبقى كذلك ، أو فيما يشبه ذلك ، بضعة قرون . وعُنى الرومان بشأنه عناية خاصة ؛ لأنهم أدركوا قيمته العسكرية والتجارية إدراكا كاملا صحيحاً . وقد وطدوا نفوذهم فيه وحافظوا على سيطرتهم عليه بعدة وسائل : منها أنهم أقاموا الحاميات القوية فى عدد من مواقعه الهامة ، حيث بنوا القلاع والثكنات ، وشيدوا الهياكل والملاعب وغيرها مما لا يزال قائماً فى جرش شمال عمّان ، وفى فيلادلفيا وهى عمّان نفسها ، ثم فى بترا وهى سلاع أو بطرا التى تعرف الآن بوادى موسى . ومن وسائل الرومان أيضاً أنهم مدوا الطرق الرومانية المعبدة والمرصوفة رصفاً جيداً يسمح بمرور العربات الحربية وانتقال الجند ونقل العتاد وغير ذلك ، ولا تزال بقايا تلك الطرق قائمة حتى اليوم . ومنها أنهم جندوا الأعراب والبدو ، واتخذوا منهم جنوداً مرتزقة ، هم أقدر على العمل ، وأقوى فى الحرب وأعمال الحراسة وحملات التأديب فى البادية من جنود الإمبراطورية غير الأعراب . ومنها أنهم شجعوا حياة الحضر المستقرة على حساب حياة البادية المتنقلة ، فحفروا الآبار وبنوا الصهاريج ، وشجعوا الملكية الصغيرة ؛ فاستوطن البدو ، وبنوا بيوت الحجر الثابتة بدلاً من بيوت الشعر المنقولة ، فسهل بذلك حكمهم ، وسلس قيادهم . ثم منها كذلك ، وقبل ذلك ، تشجيع الرومان لعناصر « التمدن » وألوان الثقافة الجديدة فى أن تتوغل فى حياة الأعراب ، لا سيما بعد أن اعترفت الإمبراطورية بالمسيحية فى القرن الرابع ، فانتشرت ديانة المسيح بين أعراب البادية تدريجيا منذ أواخر ذلك القرن ، وانتشر معها شىء من روح المسالمة بين أعراب كان كفرهم من قبل منكراً ، وكان مراسهم شديداً . كل هذه وغيرها وسائل عمد إليها الرومان الغربيون

والبيزنطيون الشرقيون من بعدهم لضمان سيطرتهم على هـذا القسم من بلاد العرب . ولـكن الشئ الغريب — أو لعله ليس غريباً — أنها كلها قريبة جداً مما تبعته الإمبراطورية البريطانية فى الإقليم نفسه من وسائل كان القصد منها أن تؤدى إلى غاية رمى إلى مثلها الرومان منذ قرون وقرون .

ولـكن الرومان لم يلبثوا أن أدركوا أنهم ان يستطيعوا أن يثابروا على حكم البلاد كولاية رومانية ، وأنه خير لهم وأبقى أن يستعينوا بالبدو أنفسهم وبسادتهم فى حكم البلاد . وهكذا صالح الروم القبائل ورحبوا بتنوخ من قضاعة ، عند ما جاءوا من جنوب بلاد العرب إلى خليج فارس ثم حدود الفرس فحدود الروم حيث نزلوا فى أواسط القرن الثالث الميلادى ؛ كما رحب الروم بعد ذلك بظهور الغساسنة ، وتأسيس ملـكهم على حدود الإمبراطورية ، وفى ظل حكم بيزنطة الاسمى . وقد وجد الروم فى إمارة الغساسنة ومملـكتهم بعد ذلك أداة طيبة تحمى حدودهم من ناحية البادية ، وناحية الفرس وعملاء الفرس فى أرض الحيرة المقابلة على الجانب الآخر من بادية الشام . وبلغ من تشجيع بيزنطة لغسان أن توجت المنذر بن غسان ملـكا على العرب حول عام ٥٨٠ الميلادى ... ولـكن المهم أن نهضة غسان لم تكن كلها راجعة إلى الروم وتشجيعهم ، وإنما هى كانت راجعة أيضاً إلى العرب أنفسهم إذ ذاك . فقد عرفوا كيف يستفيدون مما حولهم من ظروف ، وتحكموا فى تجارة الروم وإمبراطوريتهم الشرقيـة ، وأفادوا من موقعهم الجغرافى إلى حد بعيد ، وأقاموا مجدهم على أساس من النهوض بالحياة فى مظاهرها المختلفة ، لا سيما ناحية الفكر والثقافة . فـكان بلاط غسان مركزاً تطور فيه الأدب والفكر العربى قبل الإسلام ؛ وكان صنوه فى ذلك بلاط ملوك الحيرة اللخميين على حدود إمبراطورية الفرس فى العراق .

فإذا ما نحن تركنا هذا العهد ، وانتقلنا إلى عهدنا المعاصر ، وظهور نفوذ الإمبراطورية البريطانية فى هذا القسم من الجزيرة العربية ، وجدنا صورة من التاريخ لما تتم فصولها ، ولما يتكامل مظهرها النهائى ، ولـكنها قريبة الشبه بما حدث فى عهد الرومان الغربيين والروم الشرقيين . وقد بدأ البريطانيون يلتفتون إلى الشرق القريب فى أعقاب حملة نابليون . وحاولوا أن يمدوا يدهم إليه ، ولـكنها كانت محاولات مترددة فأتوا إلى مصر مرة أو مرتين فى مطلع القرن التاسع عشر ، ولـكنهم رُدُّوا عنها أو ارتدوا عنها ؛ لأنهم لم يكونوا فيما

يظهر جادين فى أمرها ، كما كان الرومان تماماً أيام وفد يوليوس قيصر على مصر ثم رجع عنها . ثم جاء البريطانيون إلى مصر مرة أخرى فى أيام الثورة العرابية ؛ ولكنهم كانوا قد استيقنوا من أمرهم وأمرها ، وآمنوا وصدقوا بقيمتها ، فعقدوا النية على أن تكون لهم هذه المرة ! وكذلك تماماً فعل الرومان أيام واقعة أكتيوم ! وفوق ذلك فقد قنع الانجليز بمصر وبقناة السويس وطريق البحر الأحمر ؛ وبقوا كذلك ثلث قرن كامل قبل أن يفكروا بطريقة جدية فى أمر طريق الهند الآخر عبر بلاد العرب الشمالية إلى رأس الخليج الفارسى . ومثل هذا حدث أيام الرومان وإن كانت الفترة بين فتح مصر وفتح بطرا والوصول إلى خليج فارس طالت إذ ذاك إلى قرن وثلث قرن .

وحانت الفرصة مواتية لبريطانيا إبان الحرب العالمية الأولى . ولعل هذه الحرب ، وما طمعت فيه ألمانيا من الوصول إلى الهند عن طريق أملاك الإمبراطورية التركية والعراق بنوع خاص ، هى التى استعجلت اهتمام بريطانيا بشمال الجزيرة العربية ، وجعلت البريطانيين يسبقون الرومان فى ذلك بقرن كامل ؛ مع أن الرومان ، والحق يقال ، لم يكونوا أقل من غيرهم حذقاً لشؤون السيطرة وفنونها . وقد بدأت بريطانيا سبيلها إلى التدخل العسكرى فى شؤون العالم العربى بأن استعانت بالعرب أنفسهم ، واستنجدتهم ضد الأتراك ، بعد أن بذلت لهم من الوعود ، وأخذت على نفسها من العهود ما هو معروف . وقد أرسلت بريطانيا عملاءها ومبعوثيها ، وبينهم لورنس الشهير ، فجندوا البدو وسلحوا الأعراب فى قلب البادية ، وهاجموا مؤخرة الجيوش التركية فى جنوب شرق الأردن ووسطه ؛ وكأنهم بذلك قد دللوا على حصافة هيئة قيادتهم ، وحسن استقرائها للظروف الجغرافية العسكرية ، عند ما وضعت أصابعها على مفتاح الموقف فى الشرق العربى الشمالى . ومهما قيل عن القيمة النهائية لمناوشات لورنس وأصحابه فى قلب البادية ، فليس من شك فى أن أقل ما فعلته أنها نفخت فى أعراب البادية ، وألهبت فيهم روح الثورة والكفاح ، مما انتهى آخر الأمر إلى إذكاء ثورة العرب ، وزعزعة حكم الأتراك من الأساس .

وعند ما استقر الأمر لبريطانيا بالانتداب على شرق الأردن عمدت إلى تمكين سلطتها وسلطانها بوسائل كثيرة : منها أنها أقامت الحاميات والمعسكرات والقواعد الجوية فى كثير من مواقعه ، لا سيما عمّان نفسها ، التى لم تلبث أن

برزت قيمتها من جديد عند ما جعل منها سمو الأمير عبد الله عاصمة للإمارة . ولا يملك من يزور عمان ، خليفة فيلادلفيا ووريثة موقعها ، إلا أن يلحظ على إحدى ربوات المدينة موقع الحصن والحامية الرومانية القديمة ، وأمام آثارها بأسفل الوادى مدرج الملعب الرومانى القديم ، وكنيس كان الجند فيما يظهر يؤدون فيه بعض ما عليهم من عبادة . فإذا انتقل الزائر إلى ربوة أخرى من ربوات المدينة وصعد إلى سطحها المستوى وجد قاعدة قوة الطيران البريطانية ، ووجد قبل ذلك معسكر الجيش العربى ، وإلى أسفله مسجد هذا الجيش . فاذا دقق الزائر استطاع أن يتعرف على آثار الطرق القديمة ومعالم اتجاهاتها الأساسية ، وهى الطرق التى حددت موقع المدينة منذ نشأتها الأولى ؛ ولا تزال الطرق الحديثة تتبع نفس الاتجاهات ، فتشخص إلى بغداد والشام ، أوتأتى من فلسطين ، أو تتجه نحو الجنوب إلى رأس خليج العقبة . وقد مد البريطانيون من الطرق العسكرية مثل ما مد الرومان من قبلهم . وكثيراً ما يلحظ المسافر على الطريق الحديث آثار الطريق الرومانى المرصوف تجرى فى محاذاته . ولم يكن الرومان فى إدراكهم قيمة شق الطرق وتعبيدها كأداة للفتح والاتصال أقل من خلفائهم البريطانيين ؛ بل إنهم ربما كانوا أحذق منهم إذا راعينا الزمن الذى عاشوا فيه ؛ وهذه بعض طرقهم لا تزال قائمة بعد أن مضى عليها ما يكاد يقارب ألفى عام .

كذلك لم يقف البريطانيون عند شرق الأردن ؛ وإنما مدوا نفوذهم إلى خليج فارس كما نعلم ؛ بل إلى خليج العقبة نفسه ، حيث مكنوا لإمارة شرق الأردن من أن تحتفظ بميناء العقبة ؛ لأنه مهم من وجهة نظر الأسطول البريطانى ، وكذلك لأنه قاعدة لتهريب الأسلحة بالبحر إلى البدو فى الصحراء . وربما كان هذا هو السر فى أن بريطانيا وقفت إلى جانب شرق الأردن عند ما طالبت المملكة العربية السعودية بذلك المرفأ على أنه تابع لساحل الحجاز ومملكته السابقة .

ثم إن بريطانيا قد استعانت بالبدو فى حراسة الطرق وتأمينها ، وفى تمكين الأمن ونشره ، كما فعل الرومان تماماً . وهداها ذلك إلى تأليف الجيش العربى ، والإنفاق على تسليحه من الخزانة البريطانية . ويقال إن هذا الجيش يبلغ الآن زهاء ثلاثة عشر ألفاً ؛ بل يقال إنه قد بلغ الثمانية عشر ألف رجل ، وإنه مزود بأحدث الأسلحة ؛ وتتولى قيادته هيئة من الضباط البريطانيين . كما يقال إن

بريطانيا استخدمته وأفادت منه فى إخماد ثورة العراق فى الشرق ، وفى احتلال سوريا والشام فى الشمال ، وفى حراسة حدود فلسطين ضد تهريب اليهود من الشمال الغربى ، كما أنجدت به ، أو ببعضه ، جيشها الثامن فى مصر يوم تحرجت الأمور . ولعل هذا فى حد ذاته يكشف لنا عن قيمة موقع شرق الأردن كقاعدة عسكرية يمكن أن تنبعث منها الجيوش والقوات إلى مختلف أرجاء الشرق العربى الشمالى فى كل اتجاه .

كذلك انتهى الأمر ببريطانيا — أو لعله بدأ معها ، لأن البريطانيين كانوا أحكم من الرومان من هذه الناحية — بأن أدركت أن من غير الممكن ولا اليسير أن تحكم الإمبراطورية شرق الأردن كما تحكم الولايات والمستعمرات ؛ فالعرب ، وأهل البادية منهم بصفة خاصة ، لم يخلقوا لمثل ذلك ؛ ويظهر أن الله لم يجبلهم على ما جبل عليه غيرهم من أهل المدنية والحياة الناعمة ؛ فهم لا يتقبلون الضيم ولا يرتضون الحكم الخارجى المباشر . ولذا عمدت بريطانيا منذ البداءة إلى ما لم يعمد اليه الرومان إلا بعد حين وبعد دروس . فتركت بريطانيا حكم البلاد الداخلى لأمير شرق الأردن وسيده الجديد ؛ ومدت إليه يد المعاونة فى أن يوحد الأعراب ويجمع كلمتهم فى هذا الوطن الناشئ الصغير ، الذى لا يزيد سكانه على ثلث مليون . وفوق ذلك فان العرب من جانبهم لم يدعوا كل أمورهم للبريطانيين ؛ وإنما أخذوا كثيراً من أسباب نهضتهم بأيديهم ؛ واستطاع أميرهم أن يشيع فى بلاده وشعبه نهضة مادية وأدبية وقومية عامة يلمسها من يزور هذا القطر العربى . والطريف أن هذه النهضة الحديثة تشبه من وجوه كثيرة ماسبقها من نهضات فى عصور التاريخ الغابرة ، وأنها تستعيد نهضة ألفى سنة بنوع خاص . فالأراضى الزراعية بدأت تتسع على حساب الفيافى والقفار ، لا سيما فى وادى الأردن نفسه ، وفى بعض الأودية والبقاع المرتفعة حيث يزيد المطر زيادة نسبية ، وحيث تجود التربة فى كثير من الجهات . وحياة الزراعة والاستقرار بدأت تعم على حساب حياة البادية والتنقل وراء الكلأ والمرعى ؛ وبيوت الحجر أخذت تظهر وسط بيوت الشعر وخيام الوبر . وطرق التجارة بدأت تفتح وأسواقها تروج وتعمر . وثروة البلاد المعدنية بدأ البحث عنها واستغلالها . وموقع البلاد الجغرافى كقاعدة للتبادل والتجارة مع داخلية بلاد العرب أخذ يبرز من جديد ، ويفيد من أصحاب البلاد وسكانها . والنهضة الاقتصادية بصفة عامة ظهرت آثارها

ودلائلها لكل زائر ، حتى لو كان سائحا لا يعنى بغير المظهر . ويكفى أن يسير المرء فى شوارع عمّان أو غيرها من مدن شرق الأردن ، أو حتى أن يزور بعض تجوع الأعراب ليرى بنفسه كيف أن مستوى الكسب والمعيشة فى هذا القطر الداخلى من العالم العربى لا يقل عنه فى نظرائه من أقطار بلاد العرب بما فى ذلك مصر[1] . كذلك نهضة البلاد التعليمية والثقافية تسير على منهج يبشر بخير كثير . وقد يكون من الطريف — والمفيد أيضاً من وجهتى النظر المصرية والعربية العامة — أن نلحظ أن ميزانية وزارة المعارف فى شرق الأردن لا تزيد كثيراً على خمسة وأربعين ألفاً من الجنيهات . ولكن تلك الوزارة تعلم بذلك المبلغ ، أو تشرف على تعليم ، اثنين وعشرين ألفاً من التلاميذ ؛ لا يمكن أن يقال إن تعليمهم ينقص فى كيفه وقيمته عما تقدمه وزارة المعارف فى مصر أو العراق مثلا لتلاميذها . وآية ذلك ، أو إحدى آياته ، أن شباب شرق الأردن ، ممن لا يكلف الدولة تعليمهم أكثر مما يعادل جنيهين مصريين اثنين للتلميذ فى السنة ، يتمون تعليمهم الثانوى فى بلادهم ثم يحضرون إلى مصر فيتابعون دراستهم فى إحدى جامعاتيها على خير ما يتابعه الطلاب الجامعيون من أبناء مصر . وفى ذلك مثال طيب يحسن أن تدرسه وزارة المعارف فى مصر إن كانت تريد أن تحتفظ بمكانتها من زيادة النهضة التعليمية فى الشرق العربى[2] .

---

(١) أمضى كاتب المقال أياماً متنقلا فى شرق الأردن منذ ثلاثة شهور ؛ ولمس فيما استطاع أن يلمس هذه الناحية بالذات . ويكفى أن نذكر أن متوسط أجر العامل العادى فى عمان لا يقل الآن عما يعادل أربعين قرشاً فى اليوم ، وكان قبل الحرب عشرة قروش . وقد ساعدت الحرب على رفع الأجور ، ولكنها لم تكن العامل الوحيد فى ذلك ؛ فارتفاع الأجور فى شرق الأردن يمثل ارتفاعاً حقيقياً فى مستوى الكسب والمعيشة العامة ؛ أو على الأقل هو أدنى إلى أن يمثل ذلك من الحالة فى بلد كمصر . وفى شوارع عمان لا يرى الزائر أكثر من ١٥ ٪ من الحفاة بالنسبة لمجموع السكان ؛ ولا يكاد يرى غير قليل من آثار سوء التغذية والفاقة بين طعام أهل المدينة . وكذلك الحال إلى حد ظاهر فى البادية .

(٢) ينفق الجانب الأكبر من ميزانية التعليم فى شرق الأردن على المعلمين أنفسهم . فلا يقل راتب المعلم عن ستة جنيهات فى الشهر بحال ، ولو كان فى أصغر مدرسة ؛ ولا يزيد كذلك على أربعة وعشرين . وفى ذلك من إنصاف هذه الطائفة وتحقيق العدالة الاجتماعية شىء كثير . بل إن ذلك ربما كان أحد أسرار نجاح التعليم فى تلك البلاد رغم مواردها الحكومية المحدودة .

أرأيت معى ياصاحبى القارئ كيف أن التاريخ يعيد نفسه فى شرق الأردن ؟ وكيف أن الحاضر ، وما يلابسه من ماض قريب ومن مستقبل قريب أيضاً ، يمكن أن يعتبر مرآة لبعض ما كان فى الماضى البعيد من صور ومن فصول ؟ ثم أرأيت معى أيضاً أن تجدد التاريخ واستعادته نفسه أمر طبيعى فى كل هذا الشرق القريب ذى الحضارة العريقة والتاريخ الطويل ؟ إن كان ذلك فلعلك توافقنى على أن من المفيد أحياناً أن ندرس بعض تاريخنا ، وأن نراجع صفحاته ؛ فقد يكون فى ذلك ما ينير السبيل أمامنا فى استشفاف بعض ما ينتظر أن يكون عليه المستقبل ! وما أشد حاجتنا فى هذه الأيام ، وفى هذا الشرق العربى كله ، إلى أن نستبين معالم هذا المستقبل ، ولو من بعيد !

سليمان موسى